

خرافة (العلم النقي)

صامويل ثيرنستورم ، دانييل سيرفيتز

مركز اميريكان انتربرايز

16 ديسمبر 2009

Climate Change E-mail Scandal Underscores Myth of Pure Science

By Samuel Thernstrom & Daniel Sarewitz

American Enterprise Institute (AEI)

ترجمة: علي الحارس

- باحث في مركز اميريكان انتربرايز (AEI). يشرف على منشورات المركز. ويشترك في إدارة مشروع (الهندسة المناخية).
- مسؤول الاتصالات في لجنة البيت الأبيض للتقديرات المناخية (2001-2003).
- كبير كتابي الخطابات في وزارة العمل (2001).
- كاتب خطابات حاكم ولاية نيويورك (1999-2001).
- ناطق باسم إدارة حماية البيئة في ولاية نيويورك (1996-1999).
- بكالوريوس في الدراسات الاجتماعية. جامعة هارفارد.



صامويل ثيرنستورم



دانييل سيرفيتز

- أستاذ مادة (العلم والمجتمع) في كليتي علم الحياة والموارد المستدامة. ومدير مشارك في مشروع تكنولوجيا النانو. ومدير جمعية العلم والسياسة والنتائج في جامعة ولاية أريزونا.
- مدير مركز العلم والسياسة والنتائج في واشنطن العاصمة (1998-2003).
- كبير علماء وباحثين في جامعة كولومبيا (1998-2003).
- مدير معهد التربية البيئية في الجمعية الجيولوجية الأمريكية (1995-1998).
- دكتوراه في الجيولوجيا. جامعة كورنيل.

إن الفهم الخاطئ للعلم بأنه على منزلة من النقاء تؤهله لصناعة القرارات السياسية من خلال التعالي على السياسة. قد أدى إلى خلق عقبة هامة في طريق التعامل مع مشكلة التغير المناخي العالمي. إذ نرى الأفراد والجماعات على طرفي الطيف السياسي قد سعوا خلف أجندات لا تعترف بالحقيقة التي تقول أن السياسات المتباينة والعلوم المعقدة لا

خرافة (العلم النقي)

يفصل بينهما إلا فاصل ضبابي دون ملامح. وحتى في ظل فضيحة الرسائل الالكترونية في جامعة ايسست انغليا¹. فإن الدليل العلمي لا يزال يعطي المبررات لاتخاذ إجراءات حذرة تعاكس الآثار السلبية للتغير المناخي. وذلك على الرغم من الدور الحاسم الذي تلعبه ظلال الشك المحيطة بالتغير المناخي والسياسة المناخية.

من موقعنا كعالمين تفرقهما الميول السياسية وتجمعهما المخاوف الراهنة. فقد عمل كل منا على اختبار الآراء التقليدية التي أفسدت الفهم العام لمشكلة التغير المناخي. لقد كان الكثير من الجمهوريين مترددين في الاعتراف بوجود دليل قوي على تورط الإنسان في هذه المشكلة والحاجة إلى صياغة سياسات حكيمة بإمكانها الحد من آثارها المؤذية. أما الديمقراطيون فقد جعلوا تقديراتهم وقيمهم السياسية تتسلل إلى علم المناخ وتفسيراته. والفهم المعتاد لضبابية توقيت وحجم الأخطار المستقبلية. والتكاليف والصعوبات الهائلة التي تكتنف أي تصرف فعال.

ومع ذلك فإن كلا الحزبين قد اتفقا. وإن كان ذلك بشكل ضمني. على أمر واحد: أن العلم هو الحكم المناسب في هذا الجدل السياسي. وأن القرار السياسي يجب أن يتقرر وفقا لتقديرات علمية موضوعية للأخطار المستقبلية. إن هذه الفكرة الجذابة تعطي السياسيين درعا يهتمون به عندما يحين موعد اتخاذ القرارات الحاسمة: فإذا كان للعلم النقي سلطة في توجيه تصرفاتنا. فلا حاجة حينئذ للاعتراف بالدور الذي تلعبه المصالح السياسية والقيم الاجتماعية في تقرير الكيفية التي ينبغي أن يتبعها المجتمع في التعامل مع قضية التغير المناخي.

(1) فضيحة الرسائل الالكترونية في جامعة ايسست انغليا: في نوفمبر 2009 قام أحد قراصنة الانترنت بعملية نشر غير قانوني لرسائل الكترونية وملفات موجودة في مخدم (Server) تستخدمه وحدة الأبحاث المناخية التابعة لجامعة ايسست انغليا (University of East Anglia) في بريطانيا. وتبين من خلال المعلومات المستحصلة من الرسائل والملفات وقوع حالات من انتقاء البيانات على نحو يدعم نظرية الاحتباس الحراري بالإضافة إلى انتهاكات أخرى بحق القانون البريطاني والأعراف العلمية. (المترجم).

خرافة (العلم النقي)

كانت الفكرة القائلة بأن العلم النقي الموضوعي هو الطرف الذي ينبغي أن يُحكّم في الجدل السياسي هي الفكرة التي تمحورت حولها سياسات الديمقراطيين خلال فترة حكم الرئيس جورج بوش الابن: والآن حان أوان الانتقام مع احتفال الجمهوريين بـ«الدليل القاطع» على سوء التصرف العلمي بما رشح من رسائل الكترونية تداولتها وحدة الأبحاث المناخية في جامعة ايست انغليا. وبعد إدانتهم لـ«حرب الجمهوريين على العلم» يجد الديمقراطيون أنفسهم مجبرين على تحمل مشقة تفسير ما تم اكتشافه عن أنصارهم في الميادين العلمية.

إننا لا نعتقد أن تلك الرسائل الالكترونية تكشف عن مؤامرة من شأنها إبطال القسم الأكبر من الدليل المتعلق بالسبب البشري لارتفاع الحرارة: ومع ذلك، فإن الضرر الواقع جراء ذلك على الثقة العامة بعلم المناخ قد يكون هائلا. وبالأخص في صفوف الجمهوريين والمستقلين. إن الخطر الفظيع، والذي ينمو منذ سنوات، يتمثل في القضاء المبرم على الدور الجوهري الذي ينبغي أن يلعبه العلم في اتخاذ القرار السياسي، وذلك عندما يدرك الناس أن العلم ما هو إلا أداة تخضع للانتماءات على تنوعها.

في خضم هذه الكارثة نجد العلماء مصرين على أنهم المزودون الأمينون للحقيقة في عالم يتصف، على العكس منهم، بالفساد والتعقيد. لكن الحقيقة ليست كذلك؛ فالعلماء لا يزالون منقسمين حول ما إذا كان بعض عمالقة العلم، من أمثال باستور¹ وميليكان²، قد لجؤوا إلى الكذب والغش وفبركة النتائج، أم أنهم كانوا، بكل بساطة، يتبعون حدسهم العلمي الجيد. إن الأحداث المعروفة التي رافقت الإنجازات العلمية الواقعية، كإكتشاف الـ(DNA)، تظهر لنا بشكل عملي أن العلم يشهد حالات تنافس ونميمة ورشوة

(1) لويس باستور (Louis Pasteur): كيميائي وبيولوجي فرنسي (1822-1895). إكتشف عملية البسترة المستخدمة حاليا في التعقيم. (المترجم).

(2) روبرت ميليكان (Robert Millikan): فيزيائي أمريكي (1868-1953). عزل الألكترون وقاس شحنته. حاز على جائزة نوبل (1923). (المترجم).

خرافة (العلم النقي)

وأخطاء وتأثر بالانتماء السياسي، وبعبارة أخرى: يزخر العلم بالإخفاقات البشرية نفسها التي تصيب كافة النشاطات الاجتماعية.

فضلا عما سبق، فإن المشاكل المماثلة للتغير المناخي ذات تعقيد علمي يتجاوز بكثير شحنة الالكترن أو بنية الـ(DNA)، فهذه الأبحاث لا تتعامل مع العناصر البنيوية للطبيعة، وإنما مع أنظمة ديناميكية ذات طبيعة معقدة لا يمكن البت فيها أو التنبؤ بتصرفاتها. وأمثال هذه العلوم لا يمكن أن تجرى فيها تجارب متكررة أو يتم التوثق منها مرارا، وأكثر من ذلك أن المعرفة والتبصر المنبثقة عن النظريات والبيانات والأدلة دائما ما ترافق مع قدر كبير من الشك والخلاف والتناقض الداخلي.

بالنظر إلى ما سبق، فإننا لم نكتب هذا المقال هجوما أو دفاعا عن علماء جامعة ايست انغليا، وإنما ليكون من الواضح أن الفكرة المثالية القائلة بأن (العلم النقي كمصدر للمعرفة يمكنه التدخل في السياسة) إنما هي فكرة باطلة؛ فسلطة العلم النقي سيف ذو حدين يقطع في كلا اتجاهي الجدل المناخي: فمن يفضل القيام بتصرف ما يجد في خرافة العلم النقي مصدرا يستقي منه شرعية فريدة للدليل الذي يأتي به إلى حلبة الجدل السياسي، ومن يعارض هذا التوجه سيجد في تلك الأسطورة أساسا قويا لشن هجوم معاكس كلما انكشف خطأ في تلك الفكرة المثالية المستحيلة التحقيق.

إن علماء جامعة ايست انغليا ومن يدافع عنهم يدعون بأنهم لجؤوا إلى السرية وانعدام الثقة لا لشيء إلا الضغط المستمر من أعدائهم. أما منتقدوهم فيجدون في الرسائل الالكترونية دليلا يكشف أن العلم قد يكون منحازا وبعيدا عن الموضوعية. لكن كلا الجانبين يعترف بالواقع الحقيقي المزعج: إذا ترافق الانقسام السياسي مع التعقيد العلمي فإن الرابط بينهما يتشوش حتى يكاد لا يرى.

إن الفضيحة الحقيقية التي كشفتها الرسائل الالكترونية لا تتمثل في إهمال العلماء لعرض آرائهم على أقرانهم بغرض التقييم، أو التلاعب بالبيانات وإخفائها، أو تدمير

خرافة (العلم النقي)

منافسيهم؛ وإنما تكمن في أن العلماء ومن يحامي عنهم في كلا طرفي الجدل المناخي يستمرون في الادعاء بامتلاكهم لشرعية سياسية نابعة من فكرة (العلم النقي) المثالية. إن هذه المسرحية تشوه صورة كل من العلم والديمقراطية؛ فهي تسيء للعلم لأن الواقع لا يتعايش مع الخرافات، وتسيء للديمقراطية لأن الخيارات السياسية الصعبة التي نشأت بتأثير التهديد الفريد، وغير المؤكد، للتغير المناخي مختبئة خلف الجدل العلمي.

أين يكمن الحل؟ إن الحل يكمن في أن ندع السياسة تنهض بمسؤولياتها؛ بل يجب أن نطالب بأن تنهض السياسة بمسؤولياتها.

إننا لا نعتقد أن قضية التغير المناخي ليست سوى حسان طروادة يستخدمه الديمقراطيون لتدمير الرأسمالية العالمية. كما لا نعتقد أن الجمهوريين مصممون بشدة على تحقيق أعلى الأرباح من صناعات النفط إلى درجة يلقون معها الأجيال القادمة في عالم مدمر. ومع ذلك، فإن هذه الاعتقادات ما هي إلا تمثيل مبسط للخيالات التي يتصورها كل فريق عن الآخر وذلك لأن الطبيعة المعقدة الحقيقية للجدل المناخي قد موتهها خرافة العلم النقي النزيه.

لقد سمحت تلك الخرافة للسياسيين بإهمال واجبههم في أن يكونوا واضحين حول القيم والمصالح والمعتقدات التي تقف خلف تفضيلاتهم وخياراتهم في العلم والسياسة. إن من الأفضل الإدراك بأن صانع القرار، اعتماداً على معتقداته السياسية، سوف يقيم أدلة ومخاطر التغير المناخي بشكل مختلف عندما يقدر الخيارات السياسية المطروحة، وما يختاره سيؤثر على عملية توزيع الفوائد والتكاليف. وسيكون لديه مفاهيم متنوعة وغير محددة للنجاح، وهنا ينبغي على الناخب أن يقيم القرارات على هذا الأساس، وليس على أساس الفكرة الباطلة القائلة بسيادة العلم على الخيارات.

هل يمكن للعلم والسياسة أن يجدا الشفاء من الضرر الذي لحق بهما باسم النقاء العلمي؟ إننا نعتقد بأن تأثير الدليل العلمي يبقى كافياً لتبرير اتخاذ إجراء حكيم بشأن

خرافة (العلم النقي)

التغير المناخي. لكننا على نفس الدرجة من الوعي بأن عواقب كل من التغير المناخي وسياسة المناخ تبقى مشوبة بالكثير جدا من الضبابية.

إن الخيارات المطروحة ذات صعوبة استثنائية؛ وعواقب القيام بعمل ما، أو عدم القيام بعمل ما، تحتل أهمية كبرى نابغة من طبيعتها. ولا أحد يمكنه معرفة ملامح القرار «الصحيح». ولكن جدل فضيحة الرسائل الالكترونية يذكرنا بأن أشخاصا غير معصومين عن الخطأ، لا العلم النقي، هم من تقع عليهم مسؤولية البت في القضية. إنها مهمة تنوء بها السياسة الديمقراطية، ويقدم لها المعلومات، دون أن يقيدوها، مشروع علمي يتصف بالجماعية والتبصر، ولا يتصف بالعصمة.